ولا تقربوا الزنا

الإمام ابن القيم الجوزية

رحمه الله


ولا تقربوا الزنا

ⓒ دار القاسم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن القيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر .
ولا تقربوا الزنا .- الرياض .
٤٨ ص ؛ ١٢ × ١٧ سم
ردمك : x - ١٣٠ - ٣٣ - ٩٩٦٠
١- الزنا   أ- العنوان
ديوي ٢٥٥,٣   ٢٠/٠٠٠٦

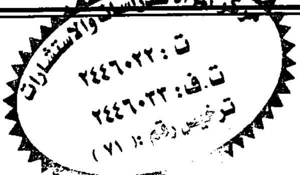
رقم الإيداع: ٢٠/٠٠٠٦
ردمك: x - ١٣٠ - ٣٣ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الصف والإخراج والتصحيح

بدار القاسم للنشر



ولا تقربوا الزنا

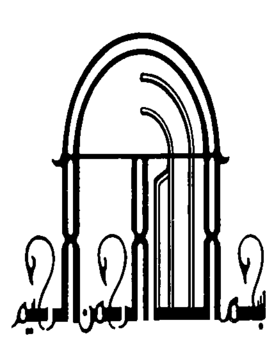
للإمام شمس الدين ابن القيم الجوزية

(٦٩١ ــ ٧٥١هـ)

دار القاسم للنشر

الرياض ١١٤٤٢ ص.ب ٦٣٧٣

ت/٤٧٧٥٣١١ فاكس/ ٤٧٧٤٤٣٢


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا أما بعد:

قال الشيخ الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله بعد كلام له سبق في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي:

• مفسدة الزنى:

ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحُرمات، وتوقِّي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكِبَرِ، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته كما تقدم.

قال الإمام أحمد: «لا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنىٰ».

وقد أكد الله سبحانه حرمته، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فقرنه بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، مالم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقال تعالىٰ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

فأخبر عن فُحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهىٰ قبحه حتىٰ استقر فحشه في العقول حتىٰ عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردا زنىٰ بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتىٰ ماتا»[1] ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة

(١) رواه البخاري (٣٨٤٩).

وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة.

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم. فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٢٢].

وعلَّق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه.

فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧].

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

ونظير هذا: أنه سبحانه ذم الإنسان، وأنه خُلق هلوعًا لا يصبر

على سراء ولا ضراء، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٢٩ـ٣١].

فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يُعلِمَهم أنه مشاهد لأعمالهم، يطلع عليها: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللَّحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات.

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة،

يلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويتبر ما علا تتبيرا.

*** مداخل المعاصي على العبد من أبواب أربعة:**

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة؛ فنذكر في كل باب منها فصلاً يليق به.

فأما اللحظات: فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات.

وقال النبي ﷺ: **«لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الأخرى»**(١).

وفي المسند عنه ﷺ: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله، أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه»**(٢) هذا معنى الحديث.

وقال: **«غُضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم»**(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٧٧) وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٦٤).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٣١٤).

وقال: «**إياكم والجلوس على الطرقات. قالوا: يا رسول الله مجالسنا، ما لنا بدٌّ منها. قال: فإن كنتم لا بد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام**»(١).

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تُولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: «الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده».

قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر

ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة بلغت من قلب صاحبها

كمبلغ السهم بين القوس والوتر

---

(١) رواه مسلم (٢١٢١) (١١٤).

والعبد ما دام ذا طرفٍ يُقلبه

في أعين الغير موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته

لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب: أن ترى مالا صبر لك على بعضه، ولا قدرة لك على بعضه.

قال الشاعر:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفك رائداً

لقلبك يومًا، أتعبتْكَ المناظِرُ

رأيتَ الذي لا كله أنت قادر

عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، ومراده: أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر على شيء منه، فإن قوله: «لا كله أنت

در عليه» نفي لقدرته على الكل، الذي لا ينفى إلا بنفي القدرة ن كل واحد.

وكم ممن أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلاً، ا قيل:

يا ناظرًا، ما أقلعتْ لحظاتُهُ

حتى تشحَّطَ بينهن قتيلاً

ولي من أبيات:

مَلَّ السلامة فاغتدت لحظاته

وقفا على طَلَلٍ يُظنُّ جميلاً

ما زال يَتْبعُ إِثْرَهُ لحظاتِهِ

حتى تشحط بينهن قتيلا

ومن العجب: أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه، ى يتبوأ مكانًا من قلب الناظر، ولي من قصيدة:

يا راميًا بسهام اللحظ مُجتهدًا

أنت القتيلُ بما ترمي، فلا تُصِبِ

وباعث الطرف يرتاد الشفاء لـه

احبس رسولك، لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك: أن النظرة تجرح القلب جرحًا، فيتبعها جرحًا على جرح؛ ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، ولي أيضًا في هذا المعنى:

مـا زلـتَ تُتبعُ نظـرةً في نظـرةٍ

في إثـر كل مليحـة ومليـحِ

وتظن ذاك دواء جرحك وهو في الـ

ـتحقيق تجريحٌ على تجريحِ

فذبحتَ طرفك باللحاظ وبالبكا

فالقلب منك ذبيحٌ أيُّ ذبيحِ

وقد قيل: «إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات».

فصل

* **وأما الخطوات**: فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولَّد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات.

ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنى باطلة ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩] وأخس الناس همة، وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال كما قال الشاعر:

أَمانيُّ مِن سُعدىٰ رُواءٌ علىٰ الظَّما

سَقَتْنا بها سُعدىٰ علىٰ ظمأٍ بـردا

منىٰ إِنْ تكن حقًا تكن أَحْسَنَ المنىٰ

وإلا فـقـد عِشنا بها زمنـا رَغْـدًا

وهي أضر شيء علىٰ الإنسان، وتتولد من العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم، والمتمني لـمّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حوَّل صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صوَّرها فكره.

وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن، يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب.

والسكون إلىٰ ذلك واستجلابه يدل علىٰ خساسة النفس ووضاعتها، وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها؛ بأن ينفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضىٰ أن يُخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها.

ثم الخطرات بَعْدُ أقسام تدور على أربعة أصول:

١ ـ خطرات يَسْتَجْلِبُ بها منافع دنياه.

٢ ـ وخطرات يستدفع بها مضار دنياه.

٣ ـ وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته.

٤ ـ وخطرات يستدفع بها مضار آخرته.

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدَّم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته، وأَخَّر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران:

أحدهما: مهم لا يفوت.

والثاني: غير مهم، ولكنه يفوت.

ففي كل منهما ما يدعو إلى تقديمه، فهنا يقع التردد والحيرة، فإن قدم المهم خشي فوات ما دونه، وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال

به عن المهم، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر.

فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة، ومن ها هنا ارتفع من ارتفع، وأنجح من أنجح، وخاب من خاب، وأكثر من ترىٰ ممن يعظم عقله ومعرفته يُؤثر غير المهم الذي لا يفوت علىٰ المهم الذي يفوت، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك، ولكنه مستقل ومستكثر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرىٰ التي عليها مدار الشرع والقدرة وإليها يرجع الخلق والأمر، وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخول في أدنىٰ المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها.

فيفوت مصلحة ليحصل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها.

* فخطرات العاقل وفكره لا يتجاوز ذلك، وبذلك جاءت الشرائع، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا علىٰ ذلك، وأعلىٰ الفِكَرِ وأَجَلُّها وأنفعها: ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة وتعلقها، وفهم مراده منها، وكذلك أنزلها الله تعالى، لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة.

قال بعض السلف: «أنزل الله القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً».

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمته، وإحسانه وبره، وجوده، وقد حضَّ سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعلقها، وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي باب لكل خير، وتأثيرها في كسر

النفس الأمارة بالسوء، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها، فحيي القلب، ودارت كلمته في مملكته، وبثَّ أمراءه وجنده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه، فالعارف لزم وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبداً.

قال الشافعي رضي الله عنه: «صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، أحدهما قولهم: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك».

وذكر الكلمة الأخرى: «ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلَتكَ بالباطل».

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً في حياته، وإن عاش فيه عاش

عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته.

وإذا كان العبد - وهو في الصلاة - ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر، فإما وساوس شيطانية، وإما أماني باطلة، وخدع كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارىٰ والمحشوشين والموسوسين، ولسان حال هؤلاء يقول، عند انكشاف الحقائق.

إن كان منزلتي في الحشر عندكُمُ
ما قد لقيتُ، فقد ضيعتُ أيامي
أمنيةٌ ظفرتْ نفسي بها زمنًا
واليوم أحسبُها أضغاث أحلامِ

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمار علىٰ الطريق، فإن لم تستدعه وتركته مرَّ

انصرف عنك، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره، هو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

وقد ركَّب الله سبحانه في الإنسان نفسين: نفسًا أمارة، ونفسًا مطمئنة، وهما متعاديتان، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى؛ فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعي الهوى.

وليس عليها شيء أضر منه، والْمَلَكُ مع هذه عن يمنة القلب، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب، والحرب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن تستوفي أجلها من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة، والحرب دول وسجال، والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله حكمًا لا يبدل أبدًا: أن العاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين، فالقلب لوح فارغ،

والخواطر نقوش تنقش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش
لوحة ما بين كذب وغرور وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا
حقيقة له، فأي حكمة وعلم وهدىٰ ينتقش مع هذه النقوش؟ وإذ
أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في
محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه، فإن لم يفرغ القلب مز
الخواطر الردية، لم تستقر فيه الخواطر النافعة، فإنها لا تستقر إلا
في محل فازغ، كما قيل:

أتاني هواها قبل أَنْ أعرفَ الهوىٰ

فصادفَ قلباً فارغاً فتمكَّنا

وكهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم علىٰ حفظ
الخواطر، وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم، حتىٰ تصير القلوب
فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها، وهؤلا
حفظوا شيئًا وغابت عنهم أشياء، فإنهم أخلوا القلوب من أ
يطرقها خاطر، فبقيت فارغة لا شيء فيها؛ فصادفها الشيطا
خالية، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها أعلىٰ الأشيا
وأشرفها، وعوَّضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلـ

والهدىٰ، وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليًا، فشغله بما يناسب حال صاحبه، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية علىٰ قلبه، وهي إرادة مراد الله الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه، وشغل القلب والاهتمام بمعرفته علىٰ التفصيل به، والقيام به وتنفيذه في الخلق، والتطرق إلىٰ ذلك، والتوصل إليه بالدخول في الخلق لتنفيذه، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلىٰ تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها.

وأوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ، وهيهات هيهات. إنما الكمال في امتلاء القلب والسر من الخواطر والإرادات والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه؛ فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكر وإرادات لذلك، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكر وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه كانت تتزاحم عليه

الخواطر في مراضي الرب تعالى، فربما استعملها في صلاته، وكان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة، وهذا باب من تداخل العبادات في العبادة الواحدة.

وهو باب عزيز شريف، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب؛ متضلع من العلم عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فصل

* **وأما اللفظات**: فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بأن لايتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بها كلمة هي أربح منها؟ فلا يضيعها بهذه، وإذا أردتَ أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإن يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه» أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقة ذلك، كذلك تطعم ما في قلب

الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»(١).

وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفرج**» قال الترمذي: حديث صحيح(٢).

وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: كُفَّ عليك هذا. فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يُكِبُّ الناس على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائِدُ ألسنتهم**» قال الترمذي: «حديث صحيح»(٣).

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩٨).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٩١، ٣٩٢، ٤٤٢)، والترمذي (٢٠٠٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٧٧).
(٣) رواه الترمذي (٢٦١٦).

ومن العجب: أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنىٰ والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتىٰ ترىٰ الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يقلي لها بالا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترىٰ من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلىٰ ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليَّ أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك»[1] فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطتْ هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

---

(١) مسلم (٢٦٢١) (١٣٧).

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: «**تكا بكلمة أوبقت دنياه وآخرته**»[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن العب ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يرفعه الله به درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها با يهوي بها في نار جهنم**» وعند مسلم: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ، يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[٢].

وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ، بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكل بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بو سخطه إلى يوم يلقاه**» وكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعني حديث بلال بن الحارث[٣].

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٧٣).

(٢) البخاري (٦١١٣)، ومسلم (٢٩٨٨) (٥٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٣١٩)، وأحمد (١/ ٤٥، ٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٦٩).

وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس قال: «تُوفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: **«وما يُدريك؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»**. قال: «حديث حسن».

وفي لفظ **«إن غلامًا استشهد يوم أحد، فوُجِدَ على بطنه صخرة مربوطة من الجوع: فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئًا لك يابني، لك الجنة، فقال النبي ﷺ: وما يُدريكِ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره»**[(١)].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**[(٢)].

وفي لفظ لمسلم: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت»**[(٣)].

وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: **«من حُسن**

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٦).
(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٤٧) (٧٥).
(٣) مسلم (١٤٦٨) (٦٠).

إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(١)] .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : **«قُلتُ: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم، قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا»** والحديث صحيح[(٢)] .

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : **«كل كلام ابن آدم عليه لا له: إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذكرًا لله عز وجل»**[(٣)] قال الترمذي : حديث حسن .

وفي حديث آخر : **«إذا أصبح العبد، فإن الأعضاء كلها تُكفِّرُ اللسان، تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»**[(٤)] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) .

(٢) مسلم (٣٨) (٦٢)، دون قوله : «قلت : يارسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ . . . » فقد رواه الترمذي .

(٣) الترمذي (٢٤١٢) .

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٩٥ ، ٩٦)، والترمذي (٢٥٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٨٧) .

وقد كان السلف يُحاسب أحدهم نفسه في قوله: «يوم حار، ويوم بارد» ولقد روي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسئل عن حاله فقال: «أنا موقوف على كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي».

وقال بعض الصحابة لجاريته يومًا: هاتي السفرة نعبث بها ثم قال: أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمّها إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام، أو كما قال.

وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد.

واختلف السلف والخلف هل يُكتب جميع ما يلفظ به، أو الخير والشر فقط؟ على قولين أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من الله وما والاه»، وكان الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول: «هذا أوردني الموارد»، والكلام أسيرك، فإذا خرج من فِيكَ صرت أنت أسيره، والله عند لسان كل قائل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرىٰ: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرىٰ في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاصٍ لله، مراء مداهن إذا لم يخف علىٰ نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته. فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترىٰ أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.



فصل

* **وأما الخطوات؛** فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قُربة ينويها لله، فتقع خطاه قربة.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرِّجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج، وقد قال رسول الله ﷺ: **«أكثر ما يُدخل الناس النار: الفم والفرج»**(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

وفي الصحيحين عنه ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**(١) وهذا الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان، ونظير حديث ابن مسعود.

*** اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس:**

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، والذي يليه، فالزنى أكثر وقوعًا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعًا من الردة، وأيضًا فإنه انتقال من الأكثر إلى ما هو أكثر منه، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنى. فإنْ قتلَتْ ولدها جمعتْ بين الزنى والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيًا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف

---

(١) البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (١٦٧٦) (٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود.

والفساد، ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة، فكم في الزنى من استحلال حرمات، وفوات حقوق، ووقع مظالم؟

* **ومن خاصيته:** أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، ويورث المقت بين الناس.

* **ومن خاصيته أيضًا:** أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف؛ ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان. فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قُتِلَتْ، كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زَنَتْ.

وقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»** متفق عليه[١].

---

(١) البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) (١٧).

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: **«إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حُرِّم عليه»**[(١)].

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: **«لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه»**[(٢)].

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: **«يا أمة محمدٍ، والله لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمدٍ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ثم رفع يديه وقال: اللهم هل بلغت؟»**[(٣)].

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنىٰ من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: «لأحدثنكم حديثًا لا يُحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١) (٣٦).
(٢) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) (٣٥).
(٣) البخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١) (١).

يقول: «**من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنى، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»(١).

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه ويشتد غضبه، فلابد أن يُؤثِّر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: «ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها».

ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنه يغمز امرأة فقال: مهلاً يابني، فصُرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقيل له «هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خير أبدًا».

• اختصاص الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

وخصَّ سبحانه حدَّ الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

---

(١) البخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١) (٩).

الثاني: أنه نهىٰ عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم: فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا ـ وإن كان عامًا في سائر الحدود ـ ولكن ذكر في حد الزنىٰ خاصة، لشدة الحاجة إلىٰ ذكره، وإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة علىٰ الزاني ما يجدونه علىٰ السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنُهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم علىٰ تعطيل حد الله.

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأرذال، وفي النفوس أقوىٰ الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة علىٰ رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر، فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكىٰ لنا من ذلك شيئًا كثيرًا نِقاصُ العقول؛ كالخدام والنساء.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالبًا ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه.

وفيها شهوة غالبة له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربه تعالىٰ في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر، وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالىٰ لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنىٰ واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره، فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يُؤتىٰ، فإنه يفسد فسادًا لا يرجىٰ له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحيي بعد ذلك من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

وقد اختلف الناس: هل يدخل الجنة مفعول به؟ علىٰ قولين،

والذين قالوا: لا يدخل الجنة احتجوا بأمور:

منها: أن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة ولد زنية»**[1] فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له في ذلك، ولكنه مظنة كل شر وخبث، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبدًا، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام؛ النار أولى به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام؟

قالوا: والمفعول به شر من ولد الزنى، وأخزى وأخبث وأوقح، وهو جدير أن لا يوفق لخير، وأن يحال بينه وبينه، وكلما عمل خيرًا قيض الله له ما يفسده عقوبة له، وقلَّ أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان، ولا يوفق لعلم نافع، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح.

والتحقيق في المسألة أن يقال: إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب، ورُزق توبة نصوحًا وعملاً صالحًا، وكان في كبره خيرًا منه في صغره، وبدَّل سيئاته حسنات، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات، وصدق الله في معاملته، فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنة، فإن

(١) حديث حسن: رواه البخاري في التاريخ الصغير (١٢٤).

الله يغفر الذنوب جميعًا، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب، حتىٰ الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك؛ فلا تقصر عن محو هذا الذنب، وقد استقرت حكمة الله تعالىٰ به عدلاً وفضلاً أن **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**[1] وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنىٰ أنه يبدل سيئاته حسنات، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب.

وقد قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣] فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة.

وأما المفعول به إن كان في كبره شرًا مما كان في صغره، لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدرك ما فات وأحيا ما أمات، ولا بدل السيئات بالحسنات، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة، عقوبة له علىٰ عمله، فإن الله سبحانه يعاقب علىٰ السيئة بسيئة أخرىٰ، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب علىٰ الحسنة بحسنة أخرىٰ.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠).

* **الخوف على أصحاب المعاصي من سوء الخاتمة:**

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يُحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي رحمه الله[(١)]:

«واعلم أن لسوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ أسبابًا، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد».

قال: «ويُروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل

---

(١) في كتابه (العاقبة في ذكر الموت والآخرة) ص(١٧٨ : ١٨١).

ابنه يقول: قل لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي، فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له قل لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي، ثم قال لابنه: يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل، ثم مات».

قال عبد الحق: «وقيل لآخر ـ ممن أعرفه ـ قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبُستان الفلاني افعلوا فيه كذا».

قال: وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية ده يازده وازده، تفسيره: عشرة بأحد عشر.

وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: «أين الطريق إلى حمام منجاب؟».

قال: «وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها. فلما رأت نفسها في داره

وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرىٰ والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار، ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول:

يا رب قائلة يومـاً، وقد تعبت:

كيف الطريق إلىٰ حمام منجاب؟

فبينما هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجارية أجابته من طاق:

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها

حرزًا على الدار أو قفلاً على الباب؟

فازدادا هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل علىٰ ذلك، حتىٰ كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

ولقد بكىٰ سفيان الثوري ليلة إلىٰ الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفًا من الذنوب؟ «فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة».

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنىٰ.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمىٰ عليه ثم يفيق، ويقرأ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنىٰ.

قال: «واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالىٰ منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في الأصل أو إصرار علىٰ الكبائر، وإقدام علىٰ العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتىٰ ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله».

قال: «ويروىٰ أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة؛ فرقىٰ يومًا المنارة علىٰ عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها؛ فرأىٰ

ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها؛ فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك؛ فقالت: لماذا؟ قال: قد سبيت لبي وأخذت بمجامع قلبي؛ قالت: لا أجيبك إلىٰ ريبة أبدًا؛ قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقىٰ إلىٰ سطح كان في الدار فسقط منه، فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه».

قال: «ويروىٰ أن رجلاً علق شخصًا فاشتد كلفه به؛ وتمكن حبه من قلبه، حتىٰ وقع ألم به ولزم الفراش بسببه، وتمنع الشخص عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتىٰ وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلىٰ غمه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له، فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلىٰ بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وفرح بي، ولا أدخل مدخل الريبة، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، فعاودته فأبىٰ وانصرف، فلما سمع البائس أسقط في يده، وعاد إلىٰ أشد

مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

يا سَلْمُ يا راحةَ العليلِ

ويا شِفَا المذنَفِ النَّحِيلِ

رضاكَ أشهى إلى فؤادِي

من رحمةِ الخالِقِ الجليلِ

فقلت له: يا فلان اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت، فعياذاً بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة».

الفهرس